الجوانب الاقتصادية في كتاب (فضائل مصر المحروسة) لابن الكندي (ت بعد ٣٥٥هـ/٩٦٦م)

م . د. إيمان سعدي هوبي
وزارة التربية / مديرية تربية الكرخ الأولى
imansaadi773@gmail.com

الملخص :

كثر المؤرخون ممن تطرقوا إلى وصف الاقاليم الاسلامية وما تتضمنه من ثروات وتقسيمات جغرافية كثيرة التي طالما تغيرت بتغير الزمن وتبدل السياسات والحكومات والدول ، ومن هؤلاء المؤرخون ابن الكندي (ت ٣٥٥هـ / ٩٦٦م) الذي تولى وصف مصر وهو يهذا كتب لنا تاريخاً محلياً دقيقاً وصف فيه اجزاء مصر وثرواتها المختلفة.

الكلمات المفتاحية : ابن الكندي ، منهجه ، فضائل مصر ، الجوانب الاقتصادية.

Abstract:

Many historians have described the Islamic regions, their wealth, and their numerous geographic divisions, which have always changed with the passage of time and the changing policies, governments, and states. Among these historians is Ibn al-Kindi (d. 355 AH / 966 AD), who described Egypt. In doing so, he wrote a precise local history in which he described the various parts of Egypt and its wealth.

Keywords: Ibn al-Kindi, his approach, the virtues of Egypt , economic aspects**.**

المقدمة :

الحمد لله الذي شرع الأحكام لعباده بكتابه المبين وأناط تفاصيلها بسيدنا خاتم النبيين، صلوات الله وسلامه عليه وآله وعلى أصحابه البررة المنتجبين ومن اقتدى بهديهم الى يوم الدين .

لقد حرصت الدولة العربية الاسلامية منذ بداية نشأتها على رسم نظام اقتصادي مستقل بها يخضع لمقومات الشريعة الاسلامية والهدف منه أن يصل الفرد الى أعلى مستوى معاشي يضمن له العيش الرغيد عن طريق توفير المواد اللازمة له للعيش وبأسعار مناسبة مستقرة سواء في الداخل أو الخارج وتصدير الفائض منها، لذا تناولت في بحثي

هذا " **الجوانب الاقتصادية في كتاب فضائل مصر المحروسة لابن الكندي (ت بعد ٣٥٥هـ/ ٩٦٦م)** " وما لهذه الجوانب من أهمية كبيرة على الاقتصاد الاسلامي وعلى أهل مصر بشكل خاص، إذ ان ابن الكندي ذكر في كتابه هذا ما لهذه البلاد من ميزات وما لها من أهمية لدى الخلفاء والعلماء ، فقد ذكر بأن مصر تميزت بموقعها الجغرافي المتميز إذ جعلها الله سبحانه وتعالى متوسطة الدنيا ، وهي في الاقليم الثالث والرابع، فسلمت من حر الاقليم الاول والثاني ، ومن برد الاقليم الخامس والسادس والسابع ، فطاب هواؤها ، ونقاء جوها وضعف حرها ، وخف بردها، وسلم أهلها من مشاتي الجبال ، كذلك ذكر ما أنعم الله سبحانه وتعالى عليها بنعمه وكرمه مع ما خصها به من الخصب والفضل ، وما أنزل فيها من البركات وأخرج منها الأنبياء والعلماء والحكماء لهذا فقد فضل الله مصر على غيرها فذكرها في كتابه العزيز في كثير من المواضيع باسمها ومنها قوله تعالى: ﴿اهْبِطُوا مِصْرًا فَإِنَّ لَكُمْ مَا سَأَلْتُمْ﴾ (البقرة :٦١) ، وفي هذه الآية الكريمة يدل في تفسيرها على مصر، وهذا يعد دليلاً واضحاً على مكانة مصر وما تحويه من خيرات كثيرة، كذلك جاء في قوله تعالى: ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ وَأَخِيهِ أَن تَبَوَّآ لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ بُيُوتًا وَاجْعَلُوا بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً﴾ (يونس:٨٧) . وهذا ما يدل ايضاً ما لمصر من تكريم بأن أخصها بإقامة النبي موسى وأخيه هارون (عليهما السلام) فيها ، كذلك قد عبر القرآن الكريم بلفظ آخر عن مصر وهو الربوة وذلك في قوله تعالى: ﴿ وَجَعَلْنَا ٱبْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُۥٓ ءَايَةً وَءَاوَيْنَٰهُمَآ إِلَىٰ رَبْوَةٍ ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ﴾ (المؤمنين:٥٠) .

وأيضاً لفظة الأرض إذ عبر القرآن الكريم عن مصر وفضلها عن غيرها من الأمصار وذلك في قوله تعالى على لسان النبي يوسف (عليه السلام)، { قَالَ اجْعَلْنِي عَلَىٰ خَزَائِنِ الْأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ} (يوسف:٥٥) ، فضلا عن إشارة القران الكريم لحكاية فرعون وافتخاره بمصر قال تعالى : ﴿ وَنَادَىٰ فِرْعَوْنُ فِي قَوْمِهِ قَالَ يَا قَوْمِ أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَٰذِهِ الْأَنْهَارُ تَجْرِي مِنْ تَحْتِي أَفَلَا تُبْصِرُونَ } (الزخرف:٥١) ، وهذا دليل أيضاً على ان أرض مصر مباركة فيها خيرات كثيرة بدليل تفاخر واعتزاز فرعون بأنه يمتلك مصر بخيراتها وأنهارها العظيمة ، وهو دليل اخر على ان مصر من المدن العظيمة التي يتباهى بها الملوك العظماء .

ومما يشار إليه ايضا ان النبي محمد (صلى الله عليه وآله وسلم) روي عنه انه قال : " انكم ستفتحون أرضا يذكر فيها القيراط ، فاستوصوا بأهلها خيراً ، فان لهم ذمة ورحما "

(مسلم . بدون تاريخ .٩٥٤،(باب ٥٦) (رقم الحديث ٦٢٥٩)) ، وهذا كله يدل على المكانة الاقتصادية العظيمة لمصر وما بها من خيرات وكرامات وخير دليل على ذلك عندما فتحها القائد عمرو بن العاص إذ قال: " ولاية مصر جامعة ، تعدل الخلافة " (ابن ظهيرة المخزومي ، ١٩٦٩ ، ٨١) وذلك يدل على ان مصر بلد مبارك لأهله .

ومما تقدم من أهمية ومعلومات فكتاب ابن الكندي يعد في غاية الأهمية والدقة ومصدراً مهماً لكل من يبحث في الجوانب الاقتصادية لمصر .

قسمت هذه الدراسة على مقدمة وثلاثة مباحث وخلاصة ، تطرقت في المبحث الأول لحياة ابن الكندي بنبذة تاريخية مختصرة ؛ في حين شمل المبحث الثاني الروايات التي قيدها ابن الكندي المتعلقة بالزراعة والثروة الحيوانية ؛ وكرس المبحث الثالث لروايات ابن الكندي والتي تضمنت الصناعة والتجارة ، ثم جاءت الخلاصة لتكشف عن أهم النتائج التي توصلت اليها الدراسة .

المبحث الأول

نبذة تاريخية مختصرة عن حياة ابن الكندي

هو المؤرخ المصري ابو عمرو محمد بن يوسف بن يعقوب بن حفص بن أبي عامر بن قيس بن صنيع... بن الأشرس بن كندة التجيبي ، نسب الى عشائر كندة التي تعد من أعرق عشائر عرب الجنوب قبل الاسلام ، ولقب بالكندي (الكندي ، د.ت. ، ٥-٧) ، ولد في العاشر من ذي الحجة عام ٢٨٣هـ /٨٩٧ م وقيل أنه توفي في عام ٣٥٠هـ/ ٩٦١م وقيل بعد عام ٣٥٥هـ/ ٩٦٦م (هوتسما ، م. ت و أرنولد ، ن. و وباسيت ، ر و هارتمان ، ر (المحررون) ، ١٩٩٨ ، ٨٦٤٥ ؛ محمود ، بدون تاريخ ، ١٨) .

من بين شيوخ الكندي ومحدثيه بالأخبار التاريخية أمين قدير المتوفي سنة ٣١٢هـ/ ٩٢٤م والذي يعد أهم شيخ درس عليه الكندي (هوتسما ، م. ت و أرنولد ، ن. و وباسيت ، ر و هارتمان ، ر (المحررون) ، ١٩٩٨ ، ٨٩٤٦) .

كما اشارت بعض المصادر على ان الكندي كان عارفاً بأحوال الناس وسير الملوك ، وقد ذكر محقق كتاب ابن عبد الحكم (صبيح ، بدون تاريخ ، ٤) ان الكندي مؤرخ مصري عاش ورفع راية التاريخ، وقد عرف عنه انه اشتغل بالتاريخ وكانت له مكانة عظيمة بين مؤرخي مصر الاسلامية ، كما انه له مؤلفات عديدة منها :الأجناد العربية ، الخندق والتراويح ، الخطط ، اخبار مسجد أهل الراية الأعظم ، سيرة السرى بين الحكم ،

سيرة مروان بن الجعد ، كتاب الموالي ، كتاب الولاء والقضاة ، فضائل مصر (محمود ، بدون تاريخ ، ٤٢-٤٥) ، وله الكثير من الكتب الاخرى الا انها فقدت ولم تصل الينا.

أما المنهج الذي سار عليه ابن الكندي في كتابه (فضائل مصر المحروسة) فعن طريق الاطلاع على الكتاب وما احتواه من مضامين يتبين ان اسلوبه في التأليف يتسم بالصدق لكونه يعتني بالسند والرواية ويهتم بها كثيرا (محمود ، بدون تاريخ ، ٥٤)، ويؤكد على الاستشهاد في كتابه بالسور القرآنية الكريمة والأحاديث النبوية الشريفة التي جاء فيها ذكر مصر ، وأشار لهذه الاهمية في الجوانب الاقتصادية عن طريق المردودات الكبيرة التي انعكست بصورة واضحة على اقتصاد مصر ، متطرقا إلى أهمية نهر النيل وبعض الصناعات التي لها أثر كبير في عمليات الاستيراد والتصدير مع الأمصار الأخرى المجاورة ، وبالمحصلة فأن ابن الكندي لم يبالغ فيما ذكره عن مصر وخيراتها طالما كان هو شاهد عيان كتب تاريخا محليا يعد مفخرة لمصر في ذلك الحين ، ولا غرو في ذلك طالما اجمعت الكثير من المصادر الاسلامية حينئذ على أهمية ومكانة الاقتصاد المصري في القرن الرابع الهجري / العاشر الميلادي .

المبحث الثاني

روايات ابن الكندي في الثروة الزراعية والحيوانية

١- في الثروة الزراعية :

لقد كانت الثروة الزراعية من المصادر المهمة لأي بلد وما تدره على خزينة الدولة من موارد وخيرات كثيرة تؤدي الى رفع المستوى الاقتصادي، وبما ان مصر بلد زراعي منذ عهود تاريخية طويلة لذا فقد حظيت الزراعة بالاهتمام الأول لغالبية شعبها لكونها الحرفة الأولى لهم وعليها يقوم نظامهم الاقتصادي، لذا فقد حرصوا على العمل على تنميتها والعناية بها، لذا فقد حظيت الزراعة باهتمام المؤرخ ابن الكندي إذ اشار الى ما أنعم الله عليها من تربة خصبة وذكر ذلك على قول الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم): "مصر أطيب الأرضين تراباً.." (ابن الكندي ، ١٩٩٧ ، ٧).

كذلك ذكر ما قاله والي مصر عمرو بن العاص رداً على رسالة الخليفة عمر بن الخطاب فقال له واصفاً تربة مصر: "ان مصر وما أحببت ان تعلمه من صفتها، تربة سوداء، وشجرة خضراء بين جبل أغبر ورمل أعفر، وقد اكتنفها معدن رفقها، ومحط رزقها، ما بين أسوار الى منشأ البحر، في سح النهر مسيرة الراكب شهراً، كان ما بين جبلها ورملها بطن أقب وظهر أجب.." (ابن الكندي ،١٩٩٧ ، ١٨).

كذلك قد أجمعت المصادر على ما تتميز به تربة مصر من ميزات بقول ابن عبد الحكم (ابن عبد الحكم ، بدون تاريخ ، ١٥ ؛ ابن الكندي ، ١٩٩٧ ، ١٦): "فلينظر الى أرض مصر حين تخضر زروعها وتنور ثمارها".

وقد ذكر المقدسي (المقدسي ، ٢٠٠٣ ، ١١٤) ان الاهتمام بالتربة وأنواعها وجودتها قد تؤدي الى تنوع المحاصيل في الأقاليم، وبين الطرق التي استخدمها سكان الأقاليم للاستفادة من مياه الأنهار في ري اراضيهم مثل إقامة السدود لرفع المياه وحجزها وتحويلها الى أراضيهم، فقد اشار الى السد المقام على نهر النيل بمدينة عين شمس في مصر، لحجز المياه ورفعها وتحويلها الى القنوات والجداول، بهدف ارواء الأراضي الزراعية حيث يسد بنبات الحلفاء والتراب قبل زيادته، فاذا أقبل الماء رده السد وعلا على الجرف ليسقي الضياع، مثل بهتين، والمنتين، وشيرو، ودمنهور (المقدسي ، ٢٠٠٣ ، ١٧١).

وقد أشار الكندي في روايته ما أنعم الله على مصر بنهر النيل الذي تعتمد عليه اعتماداً كلياً في ارواء جميع أراضيها إذ ذكر انه الله سبحانه وتعالى خلق نيل مصر معادلاً لأنهار الدنيا ومياهها، فحين يبتدئ في الزيادة تنقص كلها لمادته، وحين ينقص تمتلئ كلها (ابن الكندي ، ١٩٩٧ ، ١٧) ، أي ان نيل مصر في زيادته يفور كله من اوله الى آخره. واشار الى ان النبي محمد (صلى الله عليه وآله وسلم) قال: "أربعة انهار من الجنة سيحان وجيحان والنيل والفرات" (ابن الكندي ، ١٩٩٧ ، ١٧) لذا فانه النيل منذ بدايته نهر ضخم واسع المجرى والوادي وفير المائية (حمدان ، ١٩٨١ ، ١٤٤) .

وذكر ابن الكندي ايضاً في كتابه: "انه ليس في الدنيا نهر أطول مدى من النيل ويسير مسيرة شهر في بلاد الاسلام وشهرين في بلاد النوبة وأربعة أشهر في الخراب حيث لا عمارة، الى ان يخرج من جبل القمر خلف خط الاستواء، وليس في الدنيا نهر يصب من الجنوب الى الشمال الا هو. وليس نهر يصب في بحر الروم والصين غير نهر نيل

مصر.. وكلما زاد الحر كان أقوى لزيادته، وليس في الدنيا نهر يزيد بترتيب غير نيل مصر" (ابن الكندي ، ١٩٩٧ ، ١٨).

ونحن نتفق مع رواية ابن الكندي في ذلك لأن الكثير من المؤرخين قد أثبتوا ان المصدر الأساسي في انتعاش الاقتصاد المصري هو وجود النيل الذي يمر بجميع أراضي مصر واعتمادها عليه في سقي وارواء أراضيها.

وقد ذكر ان الفيوم المنطقة الوحيدة التي لا تعتمد على مياه الفيضان، بل كانت تروى طيلة العام وبذلك أمكن زراعتها أكثر من مرة خلال العام، وقد ذكر بأنه "لو قايسنا بأنهار الفيوم أنهار البصرة ودمشق لكان لنا بذلك الفضل" (ابن الكندي ، ١٩٩٧ ، ١٤).

وقد ذكر ابن زولاق (ابن زولاق ، ١٩٩٩ ، ٥٤-٥٦) ان هناك سبعة خلج تقوم بارواء الأراضي البعيدة منها خليج الاسكندرية، وخليج دمياط، وخليج سردوس، وخليج منف، وخليج سخا، وخليج الفيوم وخليج المنهى، كل خليج منها يتفجر الى عدة خلج ، فضلاً عن خليج أمير المؤمنين ، ويذكر ان هذا الخليج قد اشير إليه من قبل بعض القبط للخليفة عمر بن الخطاب على أن يدله على موضع كفر الخليج مقابل اعفائه من الجزية .

وقد أشار ابن الكندي الى ان هنالك في مصر ثمانون كورة وكل كورة من هذه الكور فيها أصناف البر والابنية والنتاج والشراب والطعام والفاكهة وجميع ما ينتفع به الناس (ابن الكندي ، ١٩٩٧ ، ١٢) .

وقد ذكر ان للمناخ والمياه والتضاريس الأثر الكبير في تنوع أشجار الفاكهة وأشجار النخيل بأنواعها حيث وصف لنا ما تتصف به مدينة الفرما من نخيلها العجيب إذ ذكر انه يثمر حين ينقطع البسر والرطب من ثائر الدنيا ، فيبتدئ هذا الرطب من حين يلد النخل في الكوانين، فلا ينقطع أربعة أشهر حتى يجيء البلح في الربيع، وقد ذكر انه لا توجد مثلها لا بالبصرة ولا الحجاز ولا اليمن (ابن الكندي ، ١٩٩٧ ، ١٥) ، كذلك كثرت زراعته في مدينة أسوان (الاصطخري ، ١٩٦١ ، ٤٢ ؛ المقدسي ، ٢٠٠٣ ، ١٦٨) .

وكثر ايضاً في قرية بادفو، تمر يكون ثلاث تمرات ذراع تعرف بالهلالية، وفي بادفو تمر لا يقدر أحد على أكله حتى يدق في الهاون كالسكر ثم يذر على العصائد (ابن زولاق ، ١٩٩٩ ، ٦٧) ، كذلك الجيزة في الجانب الغربي فقد تكثر فيها النخيل وقد ذكر ابن زولاق (ابن زولاق ، ١٩٩٩ ، ٦٧) بأنها لا تزيد البصرة على نخلها وهذا ما لا نتفق

به ففيه مبالغة كبيرة إذ ان البصرة رغم ملوحة مائها إلا انها تشتهر بكثرة بزراعة النخيل مقارنة بالجيزة . فضلا عن شهرة مدينة اسنا (الادريسي ، ١٩٨٩ ، ١٢٩) بزراعة النخيل.

كما أشار إلى ذكر اشجار الفاكهة ومنها العنب الذي يعد مصدراً أساسياً في بعض الأقاليم ، إذ ابدى اعجابه بمدينة الاسكندرية (ابن الكندي ، ١٩٩٧ ، ٧، ١٢ ، ٢٢) في ابنيتها وعجائبها وأكد على ان الله سبحانه وتعالى قد وصفها فقال: ﴿ إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ . الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلادِ ﴾ (الفجر :٧-٨) ، لذلك يصف هذه المدينة بأن فيها أنواع الثمار والاعناب ، وإلى هذا أشار ابن زولاق (ابن زولاق ، ١٩٩٩ ، ٦٣) ان فيها أنواع الأرطاب والثمار والاعناب ، انواع لم تكن بالعراق ولا بالحجاز فيها البرنى والبوني والبردي والصيحاني السكري والحلبانا وغيرها كذلك خص الفيوم بزراعة الأعناب ، كما كثرت زراعته في اسوان (المقدسي ، ٢٠٠٣ ، ١٦٨).

ووصف لنا ابن الكندي ما تتمتع به مدينة بنها من كثرة العسل فيها، وذكر دليلاً في ذلك عندما سأل الرسول محمد (صلى الله عليه وآله وسلم) عندما أهدى اليه العسل فقال: من أين هذا ؟ فقيل له من قرية بمصر تسمى بنها. فقال: " اللهم بارك في بنها وفي عسلها " (الكندي ، ١٩٩٧ ، ٥-١٢).

وبناءً على ما تقدم فأن بعض الأقاليم وصفت بشهرتها بزراعة الأزهار والورود والرياحين والبقول والجوز (الكندي ، ١٩٩٧ ،١٢-٢١) . ويشير ابن سعيد المغربي (ابن سعيد المغربي ، ٢٠٠٠ ، ٣- -٣١) إلى كثرة زراعة الأزهار في القاهرة بقوله: "وفي القاهرة أزهار كثيرة غير منقطعة الاتصال"، وقد تزرع الأزهار على عدة أصناف منها الأحمر والأبيض والأصفر الذي كان كثيراً ما كان يُغرس بحدائق الاسكندرية، ومن الأزهار التي انتشرت اللينوفر ويكثر في الأماكن المنخفضة التي يقف فيها الماء.

فضلا عما تقدم فقد وصف ابن الكندي (ابن الكندي ، ١٩٩٧ ، ١٢ -١٧ -٢١) زراعة الموز الذي يكثر في مدينة دمياط ، وزراعة التين والزيتون في نواحي الاسكندرية ، وزراعة الخس والقرط والقمح اليوسفي وزيت الفجل ودهن البلسان والافيون والبلنح والجلبان والذرة والبندة والكثير من الخضر والبقول، وتحدث عن كثرة زراعة القمح والكتان في مدينة اسيوط ويكثر ايضاً في مدينة المحلة وبنا وبوصير وسمنود، وقد اشتهرت مصر ايضاً بزراعة قصب السكر ولاسيما في مدينة ملوى وقفط ونجع حمادى (عاشور ، ١٩٩٤ ، ٢٨٦).

وقد وصف لنا بعض المؤرخين الرحالة ما تتصف به مصر من محصولات زراعية متنوعة في مدنها، ككثرة زراعة الأزهار وزراعة التفاح والليمون والبطيخ بأنواعه والرمان والموز والكتان، وقلة زراعة الخوخ والتين والأجاص والعنب لارتفاع سعره وكثرة البساتين (ابن سعيد المغربي ، ٢٠٠٠ ، ٢١٦ ؛ ابن بطوطة ، ١٩٩٨ ، ٢٩ ، ٣٣ ، ٣٥ ، ٤٧) .

وعن طريق روايات ابن الكندي عن المحاصيل الزراعية في مصر وروايات المؤرخين الرحالة تبين لنا ما تتميز به من ثروة زراعية كبيرة لها مردودات كثيرة على الاقتصاد الاسلامي في مصر.

٢- في الثروة الحيوانية:

اشتهرت مصر بغناها بالثروة الحيوانية المتنوعة، وذلك لتوفر المراعي الواسعة في أراضيها، مما جعلها بيئة صالحة ملائمة لتربيتها، كذلك ان هذه الثروة تعد ايضاً مورداً اقتصادياً مهماً بالنسبة لسكان مصر لأنها تقدم مادة غذائية رئيسة لاستهلاك السكان سواء من اللحوم او منتجاتها من الألبان كما ان انتاجها من الجلود والاصواف والالبان تستعمل في مجال الصناعات المختلفة، لذا فقد أولى ابن الكندي (ابن الكندي ، ١٩٩٧ ، ١٢ ، ١٦ ، ١٧ ، ٢١) لهذه الثروة اهتماماً كبيراً لدورها في حركة الاقتصاد في مصر، وقد وصف لنا بأنها بلاد إبل وماشية، وان أراضيها تكون مرعى للماشية وموقع خيل، وصائد بحر، وقانص وحش وحادي إبل، ووصف لنا مدينة بنها بكثرة عسلها ووجود النحل فيها (ابن الكندي ، ١٩٩٧ ، ٥) .

وأشار الكندي أيضاً إلى كثرة تربية الخيول والبغال وذلك بقوله: "ان مصر فيها النتاج العجيب من الخيل والبغال والحمير ما يفوق نتاج أهل الدنيا، وليس في الدنيا فرس غير الفرس المصري" ، ويعلل سبب ذلك إلى ما تتميز به من قصر ساقيها وبلاغة صدرها، وقصر ظهرها (ابن الكندي ، ١٩٩٧ ، ٢١) ، ويروي لنا رواية عن الخليفة الوليد بن عبد الملك عندما عزم على ان يجري الخيل ويمتحن خيل البلدان، فكتب الى سائر الأمصار ان يختار له خيل كل بلد وان يتوجهوا اليه بها فعندما مرت به الخير المصرية فلما رآها دقيقة العصب لينة المفاصل والاعطاف اختارها (ابن الكندي ، ١٩٩٧ ، ٢١)، وفي الحقيقة على الرغم من ان الرواية التي ذكرها ابن الكندي حقيقية إلا انه قد بالغ نوعاً ما إذ ان الكثير من بلدان العرب تتميز بخيولها العربية الأصيلة.

وقد تحدث ايضاً عن الأبقار وكثرتها وأهميتها إذ روى انه لا يكاد يرى مترهبوا الشام إلا عمشاً من أكلهم العدس ورهبان مصر سالمون من ذلك لأكلهم الجليان، ولحم البقر الخيسية المؤبدة للحلب فقط ، والتي تعد من أحسن الأبقار ، كما امتدح بقر مصر على أنها احسن من الأبقار الموجودة في الدنيا وليس هنالك بقر أعظم منها، إذ ان العفو منها يساوي اكثر من عفو الثور، ولهم حطب السنط والابنوس والقرط الذي تعلفه الدواب (ابن الكندي ، ١٩٩٧ ، ٢١) ، وعلى هذا فضل الجاحظ (الجاحظ ، ١٩٩٥ ، ١٦٠/٣) هذه الحيوانات في مصر بقوله: "والتفضيل بينها بقدر ما يرى ، من فهمها وأدبها"، وكانت البغال شائعة الاستخدام في مصر اي تتميز بحسن السير وسرعة المشي وتكثر البغال الحمر في قرية مريسة" (ياقوت الحموي ، بدون تاريخ ،١٠٨/٥) .

وأشار ابن الكندي إلى ان هنالك انواع من السمك في نهر النيل منها السمكة المعروفة بـ(الرعادة) (ابن الكندي ، ١٩٩٧ ، ٢٠)، وهذا النوع من السمك مثل الكرة الخشنة الجلد بها سم ، واذا وقع هذا النوع من السمك في شبكة الصياد ، لايزال ترتعد يداه ورجلاه حتى يلقها أو يموت، طولها نحو الذراع ومن فوائد هذه السمكة انها تعالج من به حمى في وقت قياسي وذلك اذا ربطت بخيط وعلقت في رقبة المريض شفي بإذن الله سبحانه وتعالى، كذلك لها فائدة في حفظ الناس من الأرواح الشريرة وذلك يأخذ من عظمها ومن ثم يعلق في رقبة من اراد فعل ذلك (ابن زولاق ، ١٩٩٩ ، ١٠٦ ؛ الادريسي ، ١٩٨٩ ، ١٧ ؛ السيوطي ، ١٩٩٨ ، ٣٥١ ؛ الافقهي ، ٢٠٠٦ ، ٥٥) ، كما نوه إلى نوع آخر من الاسماك موجود فيها منه سمك الايرميس (ابن الكندي ، ١٩٩٧ ،٢١) ، ويكون شكله ابيض مدور ربنه أحمر، وطوله مثل عرضه ولحمه لذيذ ومنه ما يؤكل مشوي ومطبوخ (الادريسي ، ١٩٨٩ ، ١٦)، وهناك إشارة إلى معظم أهل دمياط يأكل السمك البوري الذي يخرج من سواحل مدينة بورة ، ويصطاد كذلك من شواطئ بحيرة تنيس سمك يعرف بالحطيئي اذا شق جوفه لا يوجد فيه غير الشحم (ياقوت الحموي ، بدون تاريخ ، ٥٠٦/١)، وأكد ابن الكندي ان ليس بالدنيا بلد من البلدان يأكل أهله صيد البحر طرياً غير أهل مصر (ابن الكندي ، ١٩٩٧ ، ٢٠)، ومما تقدم فأن ابن الكندي يؤكد لنا بأن مصر تميزت بغناها بالثروة الحيوانية المتنوعة ووفرة مراعيها.

المبحث الثالث : روايات ابن الكندي في الصناعة والتجارة

١-في الصناعة:

كان من أهم نتائج استقرار العرب المسلمين في أقاليم البلاد المفتوحة واختلاطهم مع سكانها هو التعرف على التراث الحضاري لهؤلاء السكان في الميادين المختلفة ومن بينها تراث الميدان الصناعي، وقد أخذ العرب المسلمين في هذا الميدان ما أخذوا وقاموا بتطويره فأبدعوا بما أنتجوا، كذلك قد رافق سيادة العرب المسلمين في مصر تطور وتقدم عمراني كان له أثر في نشوء انواع من الصناعات وهذا ما أكده ابن خلدون (ابن خلدون ، ١٩٨٢ ، ٤٠٠) في كتابه حينما قال: "ان الصنائع انما تكمل بكمال العمران الحضري وكثرته"، وهذا يؤدي الى الانتعاش الاقتصادي في مصر، كذلك ان أي صناعة لا تقوم الا بتوفير مقومات عدة منها: توفر المواد الخام التي تقوم عليها الصناعة، كذلك توفر اليد العاملة التي لها القدرة على الانتاج الصناعي وكان غالبية الصناع من الأقباط ، كذلك تنوع المحاصيل الزراعية ، وعلى هذا فأن ابن الكندي (ابن الكندي ، ١٩٩٧ ، ١٧ ، ٢٠ ، ٢١) يشير إلى ان هنالك الكثير من أنواع الصناعات في مصر منها النسيج والكتان والقراطيس والثوب الدبيقي والبساط واليندة وغيرها الكثير.

وأشار إلى ان صناعة اليندة اشتهرت في مدينة القاهرة ومدينة منفلوط (ابو الفداء ، بدون تاريخ ، ١١٣) ، والتي وصفها ابن بطوطة (ابن بطوطة ، ١٩٩٨، ٤٩-٥٠) على انها أشبه بالعسل يباع في اسواق مصر ، كذلك صناعة الستور الثمينة التي اشتهرت بصناعته مدينة بهنسا (ابن الكندي ، ١٩٩٧ ، ٢١) ، إذ يبلغ طول الستر ثلاثين ذراعاً أو أقل او اكثر وقيمة الزوج منها ثلاثمائة دينار ومعروفة بالبهنسية نسبة الى مدينة بهنسا، وهناك البسط القرمزية بمدينة اسيوط (الادريسي ، ١٩٨٩ ، ١٣٠ ؛ ياقوت الحموي ، د.ت. ، ٥١٦/١) .

ومن الصناعات الاخرى صناعة الافيون الذي يستخدم مادة للعلاجات والتخدير وتسكين الآلام ، وصناعة القراطيس وكان يطلق عليه الكاغد الفرعوني ويستخدم لتدوين الكتابة وهو الورق المصنوع من نبات البردي وكثر في مدينة الفيوم (ابن الكندي ، ١٩٩٧ ، ٢١ ؛ ابن زولاق ، ١٩٩٩ ، ٩٩) .

وأشار ابن الكندي (ابن الكندي ، ١٩٩٧ ، ٢٠ -٢١) إلى أن مدينة تنيس قد تميزت بصناعة النسيج والكتان وبها من الطراز والثوب الدبيقي ما ليس بغيرها ، وذكر ليس في الدنيا طراز يبلغ الثوب منه الذي ليس فيه ذهب مائة دينار غير ثوب تنيس (سالم ، ٢٠٠٢ ، ٣٣٣) ودمياط (ياقوت الحموي ، بدون تاريخ ، ٤٧٢/٢-٤٧٣ ؛ سالم ،

٢٠٠٢ ، ٣٣٤) ، وأكد على انه ليس في الدنيا منزل إلا وفيه من ثوب تنيس ولو خرقة ، وبها الثياب الصوفية والاكسية المرعز وليس في الدنيا الا بمصر (ابن الكندي ، ١٩٩٧ ، ٢١) ، الأمر الذي أكده المقدسي (المقدسي ، ٢٠٠٣ ، ١٦٨-١٦٩) بأن هنالك الثياب والأردية الملونة في مدينة تنيس ، كما ان مدينة اسيوط لها مكانة مرموقة في تطوير صناعة الصوف. وأشار ابن الكندي إلى رواية مفادها بأن معاوية عندما كبر كان لا يدفأ فأجمعوا انه لا يدفئه إلا أكسية مصر، من صوفها المرعز العسلي غير مصبوغ فعمل له منها (ابن الكندي ، ١٩٩٧ ، ٢١) .

وأشار ابن الكندي إلى الكثير من المعادن التي تدخل في الصناعات منها معدن الزمرد وذكر انه ليس في الدنيا زمرد الا بمصر ، وعن طريق مصر انتشر الى باقي بلدان العالم (ابن الكندي ، ١٩٩٧ ، ٢١) ، فضلا عن المعادن الاخرى كالكبريت والفضة والذهب ، وبما يتعلق بالزمرد فقد تحدث ياقوت الحموي (ياقوت الحموي ، بدون تاريخ ، ٤/ ٣٨٣)عنه قائلا : "وليس على وجه الأرض معدن الزمرد الا هناك وربما وقعت القطعة التي تساوي الف دينار". وقد انتشر في مدينة قفط (ابن جبير ، بدون تاريخ ، ٦١ ؛ ياقوت الحموي ، ٣٨٣/٤) شرقي النيل ، كذلك تعد مدينة ترنوط وابنود من أكبر مراكز صناعة السكر ومعاصره ، اما بالنسبة الى مدينة ملوى ففيها أحسن عشر معاصر لصناعة السكر، كذلك انتشرت في الفيوم واسيوط (ياقوت الحموي ، بدون تاريخ ، ٣٨٣/٤ ؛ العبادي ، ٢٠٠٤ ، ٣٤٦) ، وهنالك العديد من الصناعات التي ذكرها منها الشمع وصناعة حلي الزينة والخل لكنه لم يعطِ اي تفصيل عن صناعتها.

٢-في التجارة :

لم يكن الازدهار في الزراعة والصناعة الوحيد الذي ادى الى تقدم التجارة في مصر، وانما يرجع كذلك للموقع الجغرافي المتميز إذ ان مصر تتوسط قارات آسيا وافريقيا وأوروبا وعندما تم فتح مصر من قبل العرب والمسلمين استغلوا هذا الموقع الرائع في التجارة بين الشرق والغرب فتدفقت المتاجر تجتاز مصر عن طريق القوافل من الفرما حتى القلزم وعن طريق البحر الأحمر حتى رأس يناس أو القصير على البحر الأحمر ثم تنتقل التجارة بعد ذلك عن طريق وديان الصحراء الشرقية إلى قفط على النيل ، كذلك هناك طريق ثالث هو طريق أيله إذ كانت أيله ملتقى الناس والتجارة (ابن الكندي ، ١٩٩٧ ، ٢٢ ؛ سالم ، ٢٠٠٢ ، ١٠٤-١٠٥).

واستنادا لما تقدم فأن التجارة شملت انواعاً مختلفة من البضائع وقد حظيت باهتمام ابن الكندي لأنها لعبت دوراً كبيراً في الاقتصاد وحركة الاستيراد والتصدير ، إذ ذكر (ابن الكندي ، ١٩٩٧ ، ٢٢) بأنه لا يخلو اقليم من الأقاليم من بضائع يصدرها ، وأخرى يستوردها بسبب وفرة المواد التي تدخل في حركة التجارة ، وكذلك وجود الطرق التجارية الآمنة المناسبة للحركة التجارية ، فنراه يصف مصر بأنها فرضة مكة والمدينة وساحلهما، وفرضة صنعاء وعدن وعمان والشحر والسند والهند والصين وسرنديب وجزائر الصين وغيرها، وانها محطة التقاء المراكب بالقلزم ، كما أكد على أنها ملتقى الطرق والسلع التجارية التي من الشرق الى الغرب وبالعكس ، اما المقدسي (المقدسي ، ٢٠٠٣ ، ١٥٤ ، ١٧٠ ، ١٩٩ ، ٢٠٠) فقد وصف مدينة الفرما في اقليم مصر بأنها كانت مجمعاً للطرق في ذلك الوقت ، وذكر ان النيل من أهم الطرق التجارية النهرية الصالحة للملاحة ، وان مدينة الفرما تقوم بتصدير الحبوب ، ويصدر كذلك الثياب الرفيعة من تنيس الى دمياط والفيوم وبوصير الكتان. كما كانت هناك بعض الصناعات المهمة ، إذ أشار إلى أن أهلها قاموا بتصدير الكثير من الصناعات منها الستور التي اشتهر بها بهنسا الآنفة الذكر ، وصناعة القراطيس لاستخدامها في تدوين كتاباتهم ، كذلك الثياب المطرزة والمعادن ومنها الزمرد الذي ذكره بأن ليس في الدنيا زمرد الا بمصر والكثير من الصناعات.

ويؤكد ابن الكندي بأن مصر تتوسط الطرق ويحمل اليها رقيق البلدان كلها من الجواري والغلمان والديباج والحرير والعنبر والزعفران وسائر اصناف التجارات ويحمل من مصر اليها مثل ذلك ، وذلك لأن لأهلها خيار ذلك كله ولسائر الناس حثالته (ابن الكندي ، ١٩٩٧ ، ٢٢) ، ولأهمية هذه الطرق يشير أحد الباحثين المحدثين إلى أن مصر كانت تستورد الأخشاب من أوروبا لصناعة اثاث المنازل والسقف (فهمي ، ١٩٧٣ ، ٢٤٩) .

ومما تقدم فأن روايات ابن الكندي عن تجارة مصر تؤكد على انها اصبحت مجمع التجارة من الشرق والغرب ، وعليه ازداد النشاط التجاري وكثرت في اسواقها البضائع من منسوجات وجلود وفراء وسيوف ورقيق واخشاب وغيرها ، وهذا ما أكده ابن الجوزي (ابن الجوزي ،١٩٤٠ ، ٧١) بقوله: "الصناعة بالبصرة والخير ببغداد والتجارة بمصر".

الخلاصة :

بعد هذه الرحلة في التقصي والغوص في كتاب ابن الكندي (فضائل مصر المحروسة) توصلت الدراسة الى عدد من النتائج :

١-اعتماد ابن الكندي في بداية رواياته على الجانب الاقتصادي لمصر على آيات القرآن الكريم والأحاديث النبوية الشريفة.

٢-أولى اهتمامه بالمعلومات الاقتصادية التي تخص سكان اقاليم مصر، بما يخص نوعية التربة والاعتماد الكلي على نهر النيل وطرق الارواء كالعيون والقنوات وإقامة السدود لتوفير المياه اللازمة للزراعة.

٣-أمدنا المؤرخين الرحالة بمعلومات عن الحياة الاقتصادية والصناعات التي تنتجها المدن المصرية وتصدرها داخل مدنها او الى بلاد أخرى وازدهار العلاقات التجارية.

٤-أوضحت الدراسة مدى اهتمام السلاطين في مصر بالصناعات والانتاج الزراعي، ووضحوا أهمية نهر النيل ومدى تأثيره في حالة نقصانه او زيادته على الحياة الاقتصادية في مصر.

٥- توصلت الدراسة إلى أن حقيقة الواقع الاقتصادي للدولة الاسلامية قد اصطبغ بصفات وخصائص مشتركة ، وكان أبرز سمات وخصائص هذه الكتلة السكانية هو سيادة الطابع الزراعي الذي طغى على معظم اقتصاديات الدولة وهذا يبدو واضحاً عن طريق المساحات الزراعية الشاسعة .

قائمة المصادر والمراجع

القرآن الكريم

اولاً: المصادر الأولية :

١-الادريسي، ابو عبد الله محمد بن عبد الله .(١٩٨٩) . نزهة المشتاق في اختراق الآفاق ، بيروت ، عالم الكتب .

٢-الإصطخري، ابن اسحاق ابراهيم بن محمد.(١٩٦١) . مسالك الممالك ، تح: محمد جابر عبد العال الحسيني ، القاهرة ، دار القلم .

٣-الاقفهي، شهاب الدين بن العماد . (٢٠٠٦) . أخبار نيل مصر ، تحقيق لبيبة ابراهيم مصطفى ونعمات عباس محمد ، القاهرة : دار الكتب والوثائق القومية .

٤-ابن بطوطة، محمد بن عبد الله بن محمد . (١٩٩٨) . رحلة ابن بطوطة ، تحقيق كرم البستاني ، بيروت : دار صادر .

٥-البلوي، خالد بن عيسى . (بدون تاريخ) . تاج المفرق في تحلية علماء المشرق ، تحقيق الحسن بن محمد السائح ، المحمدية : مطبعة فضالة .

٦-الجاحظ ، عمر بن بحر . (١٩٩٦) . الحيوان ، تحقيق عبد السلام محمد هارون ، بيروت : دار الجيل للطبع والنشر والتوزيع .

٧-ابن جبير ، ابو الحسن محمد بن أحمد . (١٩٣٦) . رسالة اعتبار الناسك في ذكر الآثار الكريمة والمناسك (رحلة ابن جبير)، تحقيق محمد مصطفى زيادة ، القاهرة : بلا .

٨-ابن الجوزي ، عبد الرحمن بن علي بن محمد . (١٩٤٠) . المنتظم في تاريخ الملوك والأمم ، بيروت : بلا .

٩-ابن خلدون ، عبد الرحمن بن محمد . (١٩٨٢) . المقدمة ، ط٥ ، بيروت : دار الرائد العربي .

١٠-ابن زولاق ، الحسن بن ابراهيم بن الحسين . (١٩٩٩) . فضائل مصر واخبارها وخواصها ، تحقيق علي محمد عمر ، القاهرة : الهيئة المصرية العامة للكتاب .

١١-السيوطي ، جلال الدين عبد الرحمن . (١٩٩٨) . حسن المحاضرة في تاريخ مصر والقاهرة ، تحقيق محمد ابو الفضل ابراهيم ، القاهرة : دار الفكر العربي .

١٢-ابن سعيد المغربي، علي بن موسى بن سعيد . (٢٠٠٠) . النجوم الزاهرة في حلى حضرة القاهرة ، ط٢ ، تحقيق حسين نصار، القاهرة : دار الكتب المصرية .

١٣-ابن ظهيرة المخزومي ، محمد بن احمد . (١٩٦٩) . كتاب الفضائل الباهرة في محاسن مصر والقاهرة ، تحقيق مصطفى السقا و كامل المهندس ، القاهرة : ملتقى اهل الاثر .

١٤- ابن عبد الحكم، عبد الرحمن بن عبد الله . (بدون تاريخ) . فتوح مصر واخبارها وفتح افريقيا والمغرب والأندلس ، تحقيق محمد صبيح ، القاهرة : دار التعاون للطباعة والنشر .

١٥-ابو الفداء ، عماد الدين اسماعيل بن علي . (بدون تاريخ) . تقويم البلدان ، بيروت : دار صادر .

١٦-ابن الكندي، أبي عمر محمد بن يوسف بن يعقوب . (١٩٩٧). فضائل مصر المحروسة ، تحقيق علي محمد عمر ، القاهرة : مكتبة الخانجي .

١٧-الكندي، أبي عمر محمد بن يوسف بن يعقوب . (بدون تاريخ) . ولاة مصر ، تحقيق حسين نصار ، بيروت : دار صادر .

١٨-مسلم ، ابو الحسين مسلم بن الحجاج بن ورد بن كوشاذ القشيري النيسابوري . (بدون تاريخ) . صحيح مسلم ، بيروت : دار صادر .

١٩-المقدسي، ابي عبد الله شمس الدين محمد بن ابي زكريا . (٢٠٠٣) . أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم ، تح: محمد امين الضنّاوي، بيروت : دار الكتب العلمية .

٢٠-ياقوت الحموي، شهاب الدين ابي عبد الله ياقوت . (بدون تاريخ) . معجم البلدان ، تحقيق محمد عبد الرحمن المرعشلي ، بيروت : دار احياء التراث العربي .

ثانياً: المراجع الحديثة العربية والمعربة :

٢١-حمدون، جمال . (بدون تاريخ) . شخصية مصر دراسة في عبقرية المكان ، القاهرة : دار الهلال.

٢٢- سالم ، السيد عبد العزيز وآخرون . (٢٠٠٢) . تاريخ مصر الإسلامية حتى نهاية العصر الفاطمي ، الإسكندرية : مؤسسة شباب الجامعة .

٢٣-صبيح ، محمد (المحقق) ، (بدون تاريخ) ، فتوح مصر وأخبارها وفتح افريقيا والمغرب والاندلس لابن عبد الحكم ،القاهرة: دار التعاون للطباعة والنشر .

٢٤- العبادي، أحمد مختار . ٢٠٠٤ . الحياة الاقتصادية في الدولة الاسلامية ، الاسكندرية : دار المعرفة الجامعية .

٢٥- عاشور، سعيد عبد الفتاح . (بدون تاريخ). الكندي وكتابه الولاة والقضاة ، القاهرة : الدار المصرية للتأليف والترجمة .

٢٦- فهمي، نعيم زكي . (١٩٧٣) . طرق التجارة الدولية ومحطاتها بين الشرق والغرب اواخر العصور الوسطى ، القاهرة : الهيئة المصرية العامة للكتاب .

٢٧-محمود، حسن أحمد . (بدون تاريخ) ، الكندي وعناية الولاة والقضاة، القاهرة : الدار المصرية للتأليف والترجمة .

٢٨- هوتسما ، م. ت و أرنولد ، ن. و وياسيت ، ر و هارتمان ، ر (المحررون) . (١٩٩٨) . الكندي ، موجز دائرة المعارف الإسلامية ، ج١٨ ، الشارقة : مركز الشارقة للإبداع الفكري .